



١- الإيثار معناه: أن يقدّم غيره على نفسه في منفعة يبتغيها، ومصلحة يريدها وقد يتمناها ولكن عند اختلابها يقدّم غيره لمحبة لمن يعطيه، أو لإرضاء الله - تعالى -، أو لوقاية نفسه من الشح، وليكون له الفلاح والفوز عند الله تحقيقاً لوعده الكريم: {وَمَنْ يُوقَ شُحًّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩].

أو لصلاح الجماعة وتعاونها وتضافرها في تحقيق غاياتها، فإنه من المقررات الشرعية والاجتماعية أن من يعيش في جماعة متحابة تربطها المودة الواصلة، والرحمة الجامعة، لا بد أن يقطع كل واحد منها جزءاً من رغباته ليتلاقى الجميع، على ما يصلح الجماعة، ويعلي شأنها، وذلك لا يكون إلا بالإيثار، أو الاستعداد له للتلاقي النفوس وتألف، وتجمع على رضوان من الله، ولا يكون التنازع، ولا تتولد الإحن.

والأثرة: أو كما يعبر بعض العلماء: الأنانية، تكون **بألا يفكر إلا في دائرة شخصه**، ففي كل ما يطلب لا يكون في قلبه إلا أنا، فأنا قبل كل شيء هي الحكم، وهي الفيصل، وهي الغاية، كل ما في الوجود يريد أن يكون مسخراً لنفسه، لا أحد يشترك معه فيما يبتغيه، بل إنه لينغضن نفسه، أن ينال الناس ما ينال، ويصلوا إلى ما يصل إليه لا يريد مشاركاً فيما تحت يديه، ولا أن يكون ما عند غيره مماثلاً لما عنده، فهو لا يريد إلا الانفراد في الخير، وفي تحقيق الرغبات، وهو الأنانية يسيطر عليه، فهو يحدق على من يكون مماثلاً له أو يزيد عليه من الماضيين من له فضل حقد على من ذكره، وإذا قيل له إن فلاناً من أهل جيله له فضل في كذا حرك ذلك في نفسه عوامل الألم، وإذا كان يعمل في أمر جامع للأمة لا يحب أن يكون واحداً في صنعه ممن جمعهم الأمر، بل يريد أن يكون دائماً فوقهم لا نظير له بينهم، قوله الفصل، وعمله هو الجسم، وهكذا يسيطر عليه قول أنا! إذا فعل أو تكلم، ولا يكاد المتبع له أن يسمع كلمة: نحن، إلا إذا كانت فخاراً أو تعظيمياً لنفسه، ولا تكون للجماعة معه أبداً.

٢ - فإذا كان الإيثار هو تقديم الخير للجماعة، وتفضيل غيره على نفسه، وتقديم من يكون تقديمه خير للجماعة، لأنه ذو فضل لا يدخل به على قومه، فإنه إذا ساد في جماعة كانت هي الفاضلة، وكانت هي التي تسير في الطريقة المثلثة، وتتقدم متضافرة رافعة رأسها فوق الأمم.

ومن الحق علينا أن نقول إن من النقوس العالية من ترى في الإيثار إشباعاً لها، وتحقيقاً لرغبة من رغباتها، إذ أنها لفنائها في المعنى الجماعي، وفي الإلaf الاجتماعي تجد لذتها في أن تنفع جماعتها وتجد الخير لها في أن تؤثر من معها بالعيش الهنيء، والنعمـة الراـفة، والعزـة الدائمة، فلذتها في نفع الآخرين أعلى من لذة الأنـاني بـتفضـيل نـفسـه، واحـتجـان كلـ اللـاذـئـن لـنـفـسـهـ، فـلـذـةـ عمرـ بنـ الخطـابـ فـارـوقـ إـلـاسـلامـ فيـ أـنـ يـحـرمـ نـفـسـهـ مـنـ الطـعـامـ لـيـعـيشـ كـمـاـ يـعـيشـ الفـقـراءـ إـبـانـ أـزـمـةـ جـائـحةـ اـعـتـرـتـ العـربـ أـقـوىـ منـ لـذـةـ الأنـانيـ مـنـ قـصـرـ اللـاذـئـنـ عـلـىـ نـفـسـهـ، وـفـيـ مـحـيـطـهـ.

وإذا ساغ لنا أن نسمى فعل أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - في هذه الحال: أثره، فهي: أثرة الإنسان الكامل نبتت من علو المعانـي الإنسـانيةـ عـنـهـ، حتىـ صـارـتـ عـنـهـ لـذـةـ الـحرـمانـ لـنـفـعـ غـيرـهـ، وـصـارـتـ لـذـتهـ مـعـنـوـيـةـ مـاـنـحـةـ وـلـيـسـتـ لـذـةـ مـادـيـةـ مـاـنـعـةـ، وـلـذـةـ مـعـنـوـيـةـ أـدـوـمـ بـقـاءـ وـأـعـمـ نـفـعاـ، وـأـعـظـمـ وـهـيـ الـتـيـ تـتـحـقـقـ مـعـ إـلـانـسـانـ الـكـامـلـ، فـبـيـنـماـ الـأـنـانـيـ الـمـادـيـةـ تـتـقـنـقـ مـعـ لـذـاتـ الـقـرـدـةـ وـالـخـنـازـيرـ وـغـيرـهـ مـنـ الـحـيـوانـ، فـيـ الـعـالـيـ مـنـهـ وـالـنـازـلـ، وـخـيـرـ لـإـلـانـسـانـ الـكـامـلـ أـنـ يـكـونـ مـحـرـومـاـ مـنـ لـذـاتـ الـمـادـةـ، مـنـ أـنـ يـكـونـ خـنـزـيرـاـ يـخـتـرـعـهـ، وـاعـتـرـ ذـلـكـ بـحـالـ الشـهـيدـ الـمـؤـمـنـ الـذـيـ يـقـدـمـ نـفـسـهـ لـفـداءـ قـومـهـ وـأـهـلـ دـيـنـهـ، إـذـ قـلـتـ إـنـهـ فـيـ إـيـثـارـهـ لـقـومـهـ، وـتـقـدـيمـ نـفـسـهـ فـداءـ لـهـ هـوـ فـيـ ذـلـكـ أـثـرـ اـخـتـارـ لـنـفـسـهـ مـعـ كـوـنـهـ مـؤـثـراـ لـقـومـهـ، فـإـنـكـ لـاـ تـعـدـوـ الصـوـابـ وـلـاـ تـجـانـبـهـ، لـأـنـهـ أـرـادـ مـاـ عـنـ اللـهـ، وـأـرـادـ نـفـعـ الـجـمـاعـةـ، وـأـيـ مـأـرـبـ أـعـلـىـ لـذـيـ الـمـرـوـءـةـ وـالـدـيـنـ مـنـ أـنـ يـرـىـ قـومـهـ يـنـتـفـعـونـ بـنـعـمـةـ وـجـودـهـ بـيـنـهـ، وـكـذـلـكـ كـانـ يـفـعـلـ الـمـجـاهـدـوـنـ الـأـولـوـنـ، يـرـوـنـ فـيـ الشـهـادـةـ لـذـةـ فـيـ طـلـبـوـنـهـ وـيـحـبـوـنـهـ، لـأـنـهـ يـرـيـدـوـنـ النـفـعـ لـأـقـوـامـهـ وـلـيـتـحـقـقـ فـيـهـ قـولـ اللـهـ -

تعالـىـ : {وـلـأـ تـحـسـبـنـ الـذـينـ قـتـلـواـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ أـمـوـاتـاـ بـلـ أـحـيـاءـ عـنـدـ رـبـهـمـ يـرـزـقـونـ * فـرـحـيـنـ بـمـاـ آتـهـمـ اللـهـ مـنـ فـضـلـهـ وـيـسـتـبـشـرـوـنـ بـالـذـينـ لـمـ يـلـحـقـوـاـ بـهـمـ مـنـ خـلـفـهـمـ أـلـاـ خـوـفـ عـلـيـهـمـ وـلـاـ هـمـ يـحـزـنـوـنـ * يـسـتـبـشـرـوـنـ بـنـعـمـةـ مـنـ اللـهـ وـفـضـلـ وـلـأـنـ اللـهـ لـأـ يـضـبـعـ أـجـرـ الـمـؤـمـنـيـنـ} [آلـ عمرـانـ: 171ـ].

3 - وإن الإيثار خلق الإسلام، دعا إليه، وحث عليه، ومدح الذين يتحلون به راجين ما عند الله - تعالى -، انظر إلى قوله - تعالى - في وصف المؤمنين: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَبَيْتِيًّا وَأَسِيرًا} [الإنسان: 8]. أي: أنهم يقدمون الطعام إلى غيرهم من المحاويخ واليتامى، مع حبهـمـ لـهـ وـرـغـبـهـمـ فـيـهـ، وـلـكـنـهـ يـؤـثـرـونـ غـيرـهـمـ، وـيـرـوـنـ فـيـ ذـلـكـ لـذـةـ مـعـنـوـيـةـ، وـعـلـوـاـ نـفـسـيـاـ.

ولقد وصف الله - تعالى - الأنصار الذين آدوا ونصروا بأن أحس أوصافهم هو أنهم يؤثرون على أنفسهم، فقال - تعالى -:

{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

والآية الكريمة تشير إلى أن الإيثار ينشأ من قوة النفس وسيطرتها على الأهواء والشهوات، لأن الإيثار حيث لا يحس بال الحاجة، والإحساس بال الحاجة ضعف في النفس يولد الأثرة، فالاثرة تنمو في ظله، ولذلك قال - سبحانه - بأبلغ إشارة وأدق عبارة:

{وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُتُوا...} [الحشر: 9].

وإذا كان الإيثار قوة نفس غالبت الشـعـرـ الشـحـ فـانتـصـرتـ عـلـيـهـ، فـالـأـثـرـ ضـعـفـ نـفـسـيـ أوـ هيـ ثـمـرـتـهـ، إـذـ يـغـلـبـ عـلـيـهـ الشـحـ وـيـسـيـرـهـ وـيـوجـهـهـ إـلـىـ درـكـ الـحـيـاةـ الـمـادـيـةـ الـتـيـ تـهـوـيـ مـعـهـ النـفـسـ.

ولقد قال الله - تعالى - في وصف الأبرار الأقوباء على نفوسهم: {وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنَى السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ...} [البقرة: 177].

وهكـذاـ نـجـدـ الإـيـثـارـ قـوـةـ فـيـ النـفـسـ، وـإـحـسـاـسـاـ بـحـقـ النـاسـ، وـهـيـ غـنـىـ النـفـسـ الـذـيـ هـوـ أـعـلـىـ درـجـاتـ الـغـنـىـ، كـمـاـ قـالـ عـلـيـهـ

الـسـلـامـ : ((لـيـسـ الـغـنـىـ عـنـ كـثـرـةـ الـعـرـضـ، وـلـكـنـ الـغـنـىـ غـنـىـ النـفـسـ)).

ولقد أقام النبي - صلى الله عليه وسلم - أول تعاون جماعي على الإيثار لا على الأثرة، لأن الإيثار يكون معه المودة والمحبة والاتفاق، والاختيار للخير دون الإجبار عليه، وكان ذلك التعاون الجماعي الذي نظم به النبي - صلى الله عليه وسلم -

الجماعة المؤمنة، في أول إقامة الدولة الفاضلة، هو بالإخاء بين المهاجرين والأنصار، والأنصار بعضهم مع بعض، والمهاجرين بعضهم مع بعض، وبذلك الإخاء في الله والمحبة في الله، وطلب رضوانه كان الإيثار، حتى إن الأننصاري كان يشاطر أخيه المهاجر، ماله، بل هم الرجل منهم يكون له زوجتان أن يطلق إداهما ليتزوجها أخيه المهاجر بعد انتهاء عدتها.

وبذلك العمل الجماعي الذي سَنَّه محمد - صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - نظاماً قائماً لا ينتهي؛ بين كيف يكون الاشتراك في الخير، إذا قام على الأخوة الواصلة، والمودة الراحمة، من غير أن يكون حقد، ولا تحاسد ولا تباغض بل يكون التلاقي على طاعة الله وطلب ما عنده، من غير أضغان ولا إحن، ولا عداوات ولا بغضاء.

4 - وإن الإيثار يكون به بناء الجماعات، فإذا تحل به القائمون على الشؤون العامة والخاصة، والآحاد في ذات أنفسهم، فإن الأمور تستقيم على ميزان الحق والعدل والنفع العام، فإذا كان القومون على الأمور التي يعود نفعها على الجماعة أو بعضها يؤثرون منفعة الناس على أهوائهم ومنافعهم الخاصة، فإنه يفتح العمل أطيب الثمرات، وتقوم المحبة بين الناس، فلو أن رئيس عمل ينسى نفسه، ويلاحظ القيام بالخدمة الكاملة في عمله ويشعر بأنه جاء لخدمة الجماعة، وتقديم أكبر قدر من الخير يستطيعه، لأنتج إنتاجاً حسناً، وما اضطربت المقاييس أمام الذين يعملون في رياسته، وعليهم أن يقوموا بحق طاعته.

ولو أن نظرة فاحصة اتجهنا بها إلى تعرف أخلاق القوامين على المصالح العامة، وأردنا أن نضع مقاييساً للصالحين، ومن دون ذلك لوجدنا أن أدق مقاييس هو ما روی عن النبي - صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - عندما سُئلَ عن الأمير الصالح وغيره فقال: ((الأمير الصالح من يعمل للمؤمنين، وغير الصالح من يعمل لنفسه)) أو كما قال، أي أن: الأمير الصالح هو الذي يتوجه في عمله إلى تحري مصلحة المؤمنين غير ناظر إلى مصلحته الخاصة وإن هذه النظرة هي الإيثار، ونظرة الأمير غير الصالح هي الأثرة، أو الأنانية، وإنك لترى ذلك واضحاً في أعمال الراشدين - رضي الله عنهم -، وأعمال أولئك الذين ظلموا من النساء في الماضي وسقوا الأرض الإسلامية بنجيع الدماء، ووضعوا سبوفهم على عواتقهم فأصابوا بها مواضع البرء ومواضع السقم، كانوا ممن عملوا لأنفسهم، ولم يراعوا مصلحة الكافة، أقرأ سيرة عمر بن عبد العزيز، واقرأ أخبار الحاج بن يوسف الثقفي، وطبق المقاييس الذي وضعه رسول الله - صلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ - فإنك تجده، واضحاً في عمل الرجلين، فعمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - كان أميراً مصالحاً، صالحأً، والحجاج بن يوسف الثقفي كان غير صالح ولما مات وجدوا في محبسه عشرين ومائة ألف لا يعرف واحد منهم لماذا حُبس...

وإننا إذا تركنا الأثرة في الماضي وما يتصل بها من منازع، وطبقنا قاعدة الإيثار، فإننا نجد النجاح الكامل في تطبيقها ونجد أنه حيثما كانت الأثرة كانت مفسدة الأمور، وكان الظلم المردي وأكل أموال الناس بالباطل وضياع الحقوق، وفساد الذمم، وأكل الرشا، وما من عمل يغلب الإيثار عليه إلا استقامت معه الأمور، وسد العدل، وقامت دعائمه على أساس صالحة قوية البنيان، ثابتة الأركان.

5 - وإن العصور التي تجد فيها الشح المطاع، والهوى المتبع، وتحصب كل امرئ لرأيه فاعلم أنها الأثرة تسير رأسها بين رجال الفكر، وذوي الرأي، وعندئذ تكون الفتنة، فإن من الناس من تدفعهم أثرتهم إلى الاستمساك بما يبدو لهم ولو كان خطأ، لأن تعصبه لفكرة تحت سيطرة الأثرة المقيمة يجعله لا يتنزل عن فكره، ولو كان محض الباطل، ومهما تكن حجة من يخالفه واضحة ببينة فإنه لا يترك فكره ويحسب أنه تنازل عن شخصه، ونقص في تفكيره، ويحمله على أن يكون من الذين قال الله - تعالى - فيهم، وقد رأوا الآيات واضحة، فقد قال فيهم: {وَجَحَدُوا بِهَا وَأَسْيَقْتَهَا أَنْفُسُهُمْ...} [النمل: 14].

وإنك إذا تتبعت أسباب كفر الكافرين، وتعنت المستكبرين، وجنوح الأكثرين إلى الباطل، بعد أن تظهر ظلماته، لوجدت الأثرة هي التي سيطرت فاختفى الإيثار، وسيطر حب الذات.

وإن الأثرة تختم على القلب فلا يشرق فيه نور، وتعمى الأ بصار، فلا ترى، وتجعل في الآذان وقرأ فلا تستمع، فلا يعلو لحق، ولا

يصفى لصوته، ويكون ممن يقول الله - تعالى - فيه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُ أَتَقْ اللَّهُ أَخْذَتُهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِسْ الْمَهَادُ} [البقرة: 206].

وإن أي عمل لا يمكن أن يستقيم إلا كان الإيثار باعثه، ورغبة النفع هي الدافع.

6 - وإنه لأجل تكوين جماعة فاضلة يكون آحادها ممن يستمعون القول، ويتبعون أحسنه: لا بد من تربيتها على الإيثار فتألف الآhad، ويكون المجتمع القائم على الإخلاص.

ولا يربى الإيثار في النفوس إلا بمنع سيطرة الأهواء والشهوات، وجعلها الحكم الذي ترضى، فالآهواء والشهوات قريبات للأثرة، وهي لا تتربي إلا في أحضانها، وبغذاء من لبنها، فإن رأيت جوًّا تسيطر فيه الأهواء وتثار فيه الشهوات، فاعلم أنه الجو الصالح للأثر المخربة للجماعات المفسدة للألم التي تهدم كل قائم، وتفرق كل مجتمع، وإن القرآن الكريم يصرح بأن فساد الأمم يكون بسيطرة الأهواء والشهوات، فقد قال - تعالى - : {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهُلِكَ قَرْيَةً أَمْرَنَا مُتَرَفِّهِا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقٌّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّنَاهَا تَدْمِيرًا} [الإسراء: 16].

وحينما رأيت نظاماً يحيي إثارة الأهواء والشهوات، فاعلم أنه نظام قد احتوى على عوامل هدمه، ومقوضات بنائه ومفرقات جمعه، وماله الانهيار لا محالة، لأنه يربى للأثرة، ويمتنع الإيثار.

إن الإيثار لا يوجد إلا مع الإخلاص، والإخلاص نور القلوب تشرق فيه الحكمة وتستقيم المقاصد، اللهم هبنا الإخلاص في أقوالنا وأفعالنا، ومقاصد حياتنا، وجنينا الأثرة في الآراء التي تتحقق صالحة الأعمال، والأثرة في الأفكار التي تجعلنا معجبين بأرائنا، ولو كانت هادمة لكل خير، والأثرة في إدارة شؤون الكافة التي تفسدتها، اللهم هبنا الاستقامة، وجنينا الاعوجاج، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشدًا.

وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه وسلم.

المصدر: رابطة العلماء السوريين، مجلة لواء الإسلام، العدد الرابع السنة 24، ذي الحجة 1389هـ.

المصادر: